الكنيسة الفلسطينية والسلطة السياسية انطلاقا من خبرتها التاريخية

القس د. متري الراهب

المقدمة:

ليس هذا الموضوع بالموضوع الهين، بل هو أشبه بالسهل الممتنع... تظنه واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن ما ان تغوص إلى أعماقه حتى تكتشف المناطق الداكنة التي يصعب أن يتغلل إليها الضياء. لذلك أود بادئ ذي بدء أن أقدم ملاحظات ثلاث علها تريحكم وتريحني وتوضح النهج الذي اخترته لهذه المقالة.

١- الملاحظة الأولى تتمحور حول الكنيسة.

فما هي الكنيسة؟ أو بالأحرى من هم الكنيسة؟ هل هي السلطة الكنسية. أم هي الشعب؟ هل هي المؤمنون منهم؟ أم هي كلهم مجتمعين؟ هل هي كنيسة المحليين أم أيضاً الأجنبيين؟

في هذه المقالة سأسلط الضوء على الكنيسة المسيحية في فلسطين فحسب، وسأستخدم مصطلح الكنيسة المحلية وأعني بها الكنيسة المحلية بشعبها وشعابها وقياداتها، أي الكنيسة المنظورة، كنيسة البشر لا الحجر، والكنيسة المنظورة كما يمكن معاينتها، لا الكنيسة غير المنظورة كما تظهر في كتابات لاهوتينا.

٢- الملاحظة الثانية تتمحور حول الخبرة التاريخية.

فخبرة هذه الكنيسة تمتد عبر ألفي عام ولا يمكن اختزالها في مقالة قصيرة. لذلك لا مناص من الانتقائية، والتركيز على الخطوط العريضة كما أراها وألمسها. وخبرة هذه الكنيسة لا يمكن أن تقتصر على المئة سنة الأخيرة أو على خبرتها تحت الاحتلال الإسرائيلي. لذلك لن نحاول التأريخ تحت ضغط اللحظة الآنية وإن طالت بعض الشيء، بل إنما نحن بحاجة إلى تأريخ طويل النفس لا يتوانى عن النظر في خبرات هذه الكنيسة منذ نشأتها قبل ألفي عام.

٣- مقالتنا تنطلق من الخبرة التاريخية وليس من التنظيرات اللاهوتية أو الإيديولوجية.

أي لن نركز على ما نريد سماعه، أو ما نؤمن به، أو نتمناه، بل على الخبرة التاريخية. لا كما نحبها أن تكون أو كما اعتدنا عليها في العظات أو ندوات الإرشاد أو العصبيات.

الهدف ان ننظر إلى التاريخ، علنا نتعلم من خبراتنا، فنقوى على صياغة مستقبلنا. فمستقبلنا هو مستقبل الكنيسة والعكس صحيح.

بعد هذه الملاحظات الثلاث، دعونا نوجه الأنظار إلى الموضوع الرئيسي.

"الكنيسة الفلسطينية والسلطة السياسية انطلاقا من خبرتها التاريخية".

الخبرة التاريخية لهذه الكنيسة هي جزء من خبرة شعب هذا الأرض. أما التاريخ فمرهون بجغرافيا هذه الأرض، بل بوضعها الجيوسياسي. فالتاريخ هو جزء من الجيوسياسية. ففلسطين أرض غاية في الصغر تحيط بها الممالك القديمة منها والحديثة من الفرس والترك من أشوريين ومصريين ومن روم وأوروبيين. لذلك ففي أغلب الأحيان كانت فلسطين محتلة وجزءاً من إمبراطورية أكبر وأعظم، وأحياناً كانت فلسطين "منطقة الحرام" التي تفصل بين إمبراطوريتَين أو تتلاقى على أرضها جيوش الممالك المختلفة تقيم حروبها على هذه الأرض كي تبعدها عن حدودها، وأحياناً أخرى كانت فلسطين مقسمة إلى أجزاء يشكل كل جزء منها منطقة نفوذ للإمبراطوريات المتخاصمة. هذه الجيوسياسية لم تحدد ملامح فلسطين وشعبها فحسب، بل وكنيستها أيضاً. وانطلاقا من الجيوسياسية هذه هناك ستة دروس تستقيها الكنيسة من خبرتها عبر العصور.

١- فلسطين أرض عانت تاريخيا من الاحتلالات المتعاقبة وحاليا تعاني الامرين من احتلال استعماري احلالي، أي أن السلطة السياسية في أغلب الأحيان كانت غريبة ولا تمت للسكان الأصليين بصلة.

وبالتالي كانت السلطة السياسية بالنسبة للكنيسة المحلية أيضاً سلطة غريبة، دخيلة، بل ومستعمرة.

كيف تعاملت الكنيسة مع هذه السلطة السياسية الغريبة؟ لم يكن التعامل واحد أو الموقف واحد، بل كانت المواقف متعددة بل وأحياناً متناقضة.

أحياناً راحت الكنيسة تقاوم فتبعَدُ قياداتها أو تُقتَل، وأحياناً أخرى كانت تنزوي وتبتعد عن حقل السياسة وكأنها ليست من هذا العالم، ومرة أخرى كانت تتواطأ مع المحتل.

كان هناك دائماً الغيورون الذين شكلوا جزءاً من المقاومة اللدودة، لتصير دماءهم بذوراً للكنيسة، وكان هناك دائماً الفريسيّون الذين كرّسوا جل اهتمامهم لحياة التقوى غير مكترثين كثيراً بالسلطة الغاشمة وكأنها لا تعنيهم، فجلّ اهتمامهم كان في المظاهر التقوية الخارجيّة ليس إلّا، وهناك أيضاً الصدوقيّون وهم رئاسات روحيّة لا تقدر إلا أن تتعامل مع المحتل لتسير أمور الرعايا وجلّ اهتمامها أن تعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وكأنها تحاول دائماً أن توفّق بين التواصل مع الشعب والتواصل مع المحتل.

إذاً في الكنيسة ستجد انعكاس لجميع أطياف الشعب، وكأنها قوس قزح يحوي كل الألوان والأشكال. وتبعاً للسياق ترى أحياناً هذا اللون يطغي على غيره، وأحياناً ترى لوناً آخر هو الغالب.

٢- فلسطين أرض لم تستطع يوماً أن تشكل كتلة أو دولة دامت مدة طويلة، بل كان تاريخها سلسلة وداع واستقبال للإمبراطورية تلو الأخرى. فما أن ودّعت فلسطين الأشوريين حتّى أطلّ عليهم البابليون، وهؤلاء استُبدِلوا بالفرس فاليونان، وحلّ محلّ الأخيرين الرومان، فالبيزنطيون فبني أميّة والعبّاس والفاطميّون والفرنجة والأيوبيّين وبني عثمان، لنصل إلى الإنجليز فالإسرائيليّين.

سلسة من الغزاة لا يدحر أحدهم إلا آخر، لذلك لم تقدر فلسطين يوماً أن تلتقط أنفاسها. وقد انعكس هذا على الكنيسة أيضاً، إذ لم تستطع كنيسة الأرض المقدسة من أن تطور هوية كهوية الأقباط مثلاً حيث تكاد الهوية السياسية والهوية الدينية أن تكونا وجهان للعملة الواحدة. ولم تنشأ هنا مثلاً كنيسة واحدة تربط بين الدين والأمة والثقافة كالكنيسة القبطية مثلاً.

كما ولم تستطع الكنيسة في فلسطين أن تنسحب إلى الجبال لتطور هوية كتلك التي طورها الموارنة، ولم تحافظ كنيسة الأرض المقدسة على لغتها الأصلية الآرامية كما فعلت الكنيسة المارونية الجارة، ولم ترَ كنيسة الأرض المقدسة في نفسها كنيسة الكنعانيين، لأن الانقطاع هو السمة الغالبة في تاريخها لا التواصل التاريخي. لذلك بدلت فلسطين هويات كثيرة، وتأثرت دائماً بالإمبراطوريات الوافدة، بل تفاعلت كنيسة الأرض المقدسة مع الإمبراطوريات الوافدة جميعها وتأثرت بها وصبغت بصبغتها.

تتغنى كنيسة الأرض المقدسة أنها أم الكنائس، فهنا ولد المسيح وهنا صلب وقام وصعد، وهنا سمعت البشارة السّارة للمرة الأولى، وهنا وِلدَت الكنيسة الجامعة، ومن هنا خرج المرسَلون الأوائل إلى أقصى زوايا المسكونة. ولكن ومن ناحية أخرى وإذا بحث المرء عن الهويّة الأصليّة لهذه الكنيسة، فلن يجدها أبداً بل تراها اندثرت بل وذابت في الهويّات الوافدة إلى فلسطين.

ولا أبالغ إن قلت أن كنائس فلسطين اليوم إنما هي بقايا إمبراطوريات وفدت إلى فلسطين وحكمت وهُزمت لترحل ولكن بقيت آثارها حيّة إلى يومنا هذا في كنائسنا. فهنا كنيسة للروم في زمن لم يعد فيه روم، وهنا كنيسة للاتين في عهد انقرضت فيه اللغة والهويّة

اللاتينيّة، وهنا كنيسة أنغليكانيّة تشهد عن زمن امتد فيه النفوذ البريطاني إلى فلسطين، ناهيك عن كنيسة لوثريّة أو ملكيّة تشهد عن انعكاسات خارجيّة في الكنيسة المحلية.

وهذا ينطبق على المسلمين أيضاً فهم نتاج إمبراطوريّة واحدة لم تستطع يوماً من أن تشكل هوية إسلاميّة فلسطينيّة، بل بقي الإسلام رهن بالإمبراطوريات المحيطة من أمويّة سوريّة إلى عباسيّة عراقيّة، إلى فاطميّة أو أيوبيّة مصرية، أو عثمانيّة تركيّة.

واليوم ها هي الهويات الإيرانيّة والسعوديّة تتصارعان على أرض فلسطين باسم الإسلام.

إن كل التجليّات الطائفية في فلسطين إنما هي تجليات لإمبراطوريات وافدة.

هذه حقيقة مرّة، ولكنها مرتبطة أصلاً بالجيوسياسيّة لا باللاهوت. هذه الحقيقة المرّة لها وجه آخر فيه شيء من الحلو... فالكنيسة في الأرض المقدسة إذ تأثرت بالإمبراطوريات الوافدة، إنما استطاعت أن تتفاعل معها وتتواصل معها وتؤثر بعض الشيء فيها. لقد فرضت الجيوسياسية على الكنيسة أن تطور هويّة ديناميكية ومرنة تستطيع أن تتأقلم مع المتغيّرات الكبيرة التي عصفت عبر مر العصور بمنطقتنا هذه، فتلوّنت الكنيسة بلون محيطها الجديد كي تصير جزءاً منه وبالتالي تتمكّن من الصمود والبقاء.

إن هذا التفاعل بين أتباع الكنيسة المحلية وبين الإمبراطوريات الوافدة، ضخ في الكنيسة المحلية دماءً جديدة طوال الوقت، كما وأدخلها في صورة ما يجري في العالم الفسيح من متغيرات وتطورات فكريّة وعقائديّة. بل والحق يقال أن العديد من شخصيّات الكنيسة المحلّية ما كانوا قد عُرفوا واشتهروا لو لم ينخرطوا أصلاً في الإمبراطورية ومدارسها، بدءاً من بولس الرسول وحتى إدوارد سعيد. ففي هذه الكنيسة المحلّية يصدق القول أن لا كرامة لنبي في وطنه، وأن الشهرة تمر عادة عبر عواصم الإمبراطوريات.

٣- فلسطين كانت دائماً أرض الفقراء والمساكين. شعبها الأصلي فقير يعتاش على المساعدات الأجنبية منذ زمن بطرس وبولس.

الأموال والموارد الكثيرة هي رهن للإمبراطوريات، لذلك كانت الكنيسة الأصلية تجتمع في البيوت وفي الدهاليز تحت الأرض. الكنيسة في الأصل هي كنيسة الفقراء اللذين لا مملكة لهم إلا ملكوت السماوات. لذلك ترى كل المباني الكنسية الرئيسية إنما هي من صنع الإمبراطوريات. ابتداء من كنيسة المهد فالقيامة التي شادها ودشنها الإمبراطور قسطنطين، ومروراً بكل الكنائس في مدن فلسطين الرئيسية.

هذه المباني الشاهقة والجميلة هي تجليات لهذا الإمبراطور أو لتلك الدولة، وهذا لا ينطبق على المسيحيين فحسب، بل الظاهرة نفسها بادية للعيان عند المسلمين. فقبة الصخرة لم يبنها أهل البلاد المسلمين، بل عبد الملك بن مروان إمبراطور الدولة الأمويّة، ولا يعمّر بيوت الله اليوم المؤمنون بل السعوديّون أو أحد الأمراء الخليجيّين.

٤- شعب هذه الأرض يصير فقيراً إذ تسلب الإمبراطوريات الوافدة غلّاته وموارده كما تسلب إسرائيل اليوم مياهه وحجارته.

موارد هذا الشعب ليست تحت تصرّفه، بل هي تحت سلطة الإمبراطورية الوافدة. والشيء ذاته ينطبق على الكنيسة أيضاً، فالأماكن المقدسة هي ليست للكنيسة المحلّية، بل هي في تصرّف القيادات الأجنبية من يونانية أو فرنسسكانية أو ألمانية وفرنسية وإنجليزية.

أذكر أنني ذهبت في أحد الأيام إلى دير مار سابا وما ان قرعت الباب حتى فتح لي راهب متشح بالسواد، وسألني هل أنت أرثوذكسي؟ فقلت لا، فقال إنما لا يدخل

هـذا الديـر المقـدس إلا حسـني العبـادة الأرثوذكسـيّين. المضحـك المبكـي أن هـذا الراهـب الوقـور إنمـا جـاء بالأصـل مـن نيويـورك، فهـو أمريكـيّ الأصـل والفصـل وهـداه اللـه أخيـراً إلـى الطريـق المسـتقيم فجـاء إلـى فلسـطين ليقيـم الديـن فـي الأرض المقدسـة.

مـا الفـرق بيـن هـذا الراهـب الـذي يتحكـم فـي هـذا الديـر فـي تخـوم بيـت لحـم، مـن ذلـك المسـتوطن اليهـودي الـذي أمّ بلادنـا مـن بروكليـن ليسـتوطن أفـرات ويمنعنـي مـن الدخـول بحجـة أننـي فلسـطينيّ، وأنـه هـو حفيـد شـعب اللـه المختـار.

شـعب هـذا الأرض غربـاء فـي عقـر دارهـم، والمسـتوطنون أضحـوا هـم أهـل الـدار.

لذلـك كتـب فولـك الشـارتري فـي تاريخـه المسـمّى التاريـخ المقدسـيّ أن «اللـه» غـرس الغـرب فـي الشـرق: "نحـن الذين كنـا غربيّيـن تحوّلنـا إلـى شـرقيّين. مـن كان منّـا مـن رومـا أو كان إفرنجيـاً أصبـح اليـوم جليليّـاً أو فلسـطينيّناً، ومـن كان مواطنـاً فـي رايمـس أو شـارتر تحـول الآن إلـى مواطـن فـي صـور أو إنطاكيـا. وقـد نسـينا أماكـن ولادتنـا".
للأسـف مـوارد هـذه البـلاد ليسـت لأهلهـا الأصلييـن كمـا أن الأماكـن المقدسـة ليسـت للكنيسـة المحلّيـة، بـل هـي هبـة مـن إمبراطوريـة لأخـرى. والقـرار لـم يكـن يومـاً للكنيسـة المحلّيـة. فهـي تـارة هبـة مـن هـارون الرشـيد إلـى شـارلمان (797)، ومـرة أخـرى هـي منّـة مـن المماليـك إلـى الفرنسيسـكان(1333)، أو مـن العثمانيّيـن إلـى اليونـان أمّـا أماكنهـا المقدّسـة فتُـدار بحسـب نظـام وضعـه المنتصـرون فـي حـرب القـرم. ولـن يكـون وعـد بلفـور بـالأرض لليهـود بآخـر المشـوار، بـل الحبـل سـيبقى علـى الجـرّار.

ويخطـئ مـن يظـن أن هـذا الامرهـو حكـر علـى المسـيحيين، بـل ينطبـق كذلـك علـى المسـلمين. لذلـك ليسـت مصادفـة أن يجعـل العثمانيـون القـدس متصرفيّـة مرتبطـة بإسـطنبول عوضـاً عـن سـوريا، وأن لا يكـون المسـجد الأقصـى بأيـدي الفلسـطينيّين، بـل الهاشـميّين.

٥- يظـن شـعب هـذا الأرض انّـه لاعـب أساسـيّ علـى السـاحة الإقليميّـة والدوليـة، ولكنّـه وللأسـف مفعـول بـه (ملعـوب بـه)، وتتسـابق الإمبراطوريّـات المتعاقبـة بالتعاطـف مـع شـعب هـذا الأرض، ولكنّهـا وفـي المحصلـة إنمـا توظّفـه لمصالحهـا السياسـيّة. وشـعب هـذه الارض مسـكينٌ يتمسـك بـكل قشّـة علّهـا تنقـذه مـن الطوفـان.

٦- لذلـك فالكنيسـة المحليـة ليسـت كنيسـة أقلّيـة، بـل هـي تحمـل فـي جسـدها آثـار صليـب مخلصهـا، كمـا وتعكـس صـورة الأرض التـي جُبلـت منهـا وتشـترك مـع شـعبها بآمالهـا وآلامهـا. لذلـك تشـكّل هـذه الأرض بشـعبها وكنيسـتها وحـدة واحـدة، فالكنيسـة مـن هـذا الشـعب وإليـه، ومـن هـذه الأرض ولهـا، ويشـكل الثـلاث مثلثـاً متسـاوي الأضـلاع.

٧- وتبقـى قـوة هـذه الكنيسـة فـي رسـالتها الخالـدة؛ ففـي سـياق تعاقـب الإمبراطوريـات تراهـا تنـادي بالحرّيـة للمأسـورين، وبالخـلاص للمقهوريـن، وأمـام جبـروت الأقويـاء تشـهد هـذه الكنيسـة أنّ طوبـى للمسـاكين لأنّ لهـم ملكـوت السـماوات... الـذي هـو أكبـر مـن كل الإمبراطوريّـات... وأسـمى مـن كل القوميّـات، ميّـزة الكنيسـة المحلّيـة فـي رجائهـا الـذي كان ومـا زال علـى مـرّ العصـور، وبالرغـم مـن أزمنـة البـؤس واليـأس الشـديدين.

فتـرى أعضاءهـا مكتئبيـن لكـن غيـر متضايقيـن، متحيّريـن، لكـن غيـر يائسـين، مضطَهَديـن، لكـن غيـر متروكيـن، مطروحيـن أرضـاً لكـن غيـر هالكيـن، يحملـون فـي أجسـادهم كل حيـن إماتـة الـربّ، لكـي تظهـر عليهـم حيـاة الـربّ المُقـام. ليـس هـذا بقانـون إيمانهـا فحسـب، بـل هـذه هـي خبـرة هـذه الكنيسـة التـي اكتسـبتها علـى مـر الأعـوام والأزمـان.